مستقبل العلاقات بين الدين والمتدينين

تشق المذاهب المادية طريقها فى الحياة بقوة، حتى ليظن بعض المتشائمين أن الأديان فى معركة انسحاب! فإن جماهير كثيفة من البشر قطعت صلتها بالسماء، أو جمدت هذه الصلة فى إطار يجعلها أقرب إلى الموت منها الى الحياة..

ولست مع أولئك المتشائمين فى الفزع من المستقبل، ولكن الأمور إذا بقيت تسير فى مجراها المشاهد، فإن الظلام المادى سيطبق على كل شئ، ويزحف على كل أفق.

وسيكون المتدينون أنفسهم – على اختلاف معتقداتهم السماوية – هم السبب فى ضياع الإيمان وفشل قضاياه..!

إن المذاهب المادية تستغل أخطاء خصومها، وتنفذ إلى غايتها من الفجوات الكبيرة فى أفكارهم ومسالكهم.

ولا يرجع شيوع الإلحاد والانحراف إلى ما فيهما من نفع عاجل، بل إلى أن المتدينين لم يحسنوا حل ما فى الحياة من مشكلات!

وليتهم قنعوا بهذا القصور، لقد زاد الطين بلة أنهم جعلوا من علاقة بعضهم بالبعض الآخر مشكلات قاسية دامية!

فكيف يفلحون مع هذه النقائض الغريبة؟

وبين يدى العالم كله الآن مشكلة «إسرائيل» فهى دولة قامت على أساس دينى يستهدف جمع يهود العالم أجمع فى بقعة من الأرض ليست مجهلا من المجاهل ولا قفرا من القفار، ولكنها بقعة عامرة بأهليها الأصلاء الذين اطمأنوا بها، واستقروا فيها من دهور.

ومع ذلك فان الضمير الدينى لدى «الصهيونيين» استباح لنفسه تشريد هؤلاء، وتدمير حاضرهم ومستقبلهم.

والضمير الدينى لدى «الاستعماريين» من أوروبيين وأمريكيين حالف زميله على غيه، وعاونه على ارتكاب جريمته، وأمده بالسلاح ليفتك وبالمال ليقوى ويضرى!

فهل هذا التدين الأعوج أهل للحياة والبقاء؟

أو ليس هذا العوج عذرا للماديين كي يسيئوا الظن بالدين كله، ويحاولوا اقتلاعه من جذوره؟

إنني أدين بالاسلام، وأثق ثقة مطلقة في وجود الله، وصلاحية وحيه لهداية الخلق، وقيادتهم الى الخير والرشد.

وأرمق الصراع القديم بين شتى الشرائع السماوية، فأشعر بالأسى والألم وأود لو تاحت فرص في الحاضر أو المستقبل لتعاون مثمر بين أهل الكتاب كلهم، ترقى به الإنسانية، وتقف في وجه المادية العمياء والعدوان الغشوم.

وبديهي أنه لن يقوم هذا التعاون إلا بعد استخفاء الأحقاد، وتلاشي نيات السوء، وانتهاء الرغبات المجنونة في القضاء علينا وعلى ديننا وانقضاء هذه الجرأة المستهجنة على حقوقنا الطبيعية في الحياة والاستقرار.

أما مع اتفاق مجموعة قليلة أو كثيرة من الدول الصغرى والكبرى على إماتة فلسطين وإحياء إسرائيل فهيهات أن يكون ذلك دلاله على خير، أو أمارة على سلام، فإن المشاعر الكامنة وراء هذا الاتفاق لا تخفى علينا، والضغائن التاريخية المتنفسة خلفه نذير شر مستطير.

إن انتشار المادية في الأخلاق والثقافات يرجع - كما أومأت - إلى سلوك المتدينين أكثر مما يرجع الى ترحيب الخاصة والعامة بالكفر والإباحة والتحلل.

وإن أتباع موسى وعيسى ومحمد يستطيعون كتابة صفحة جديدة مضيئة في تاريخ العالم، لكن المداد الذي تكتب به هذه الصفحة لا يجوز أبدا أن يكون من دماء المضطهدين وعبرات اللاجئين!

أو بتعبير أصرح لا يجوز أن يكون من دماء المسلمين!

وإذا لم يفهم الآخرون هذه الحقيقة فان الأديان سوف تستهلك نفسها في صراع داخلي مشئوم، وسوف ينفتح الطريق واسعا فسيحا أمام منازع الإلحاد والرذيلة والكفر بالله واليوم الآخر.

ذلك، ويخطئ كثير من الناس عندما يظن الأديان السماوية متباعدة الأصول متنافرة الاتجاه، فان الله بعث أنبياءه على مر الزمان بدين واحد.

والحقائق التي أراد تعليمها للناس في مجالات التربية النفسية والتعارف

الاجتماعي متقاربة إن لم تكن متحدة، والمرسلون على اختلاف أممهم اخوة.

وهذه القرابة الروحية من حقها ان تجمع لا أن تفرق، وأن توقظ مشاعر التعاون والتعاطف لا مشاعر القطيعة والخصام.

وعند التامل فى تعاليم الاسلام نجد عشرات الأدلة على صدق ما ذكرنا.

فالقرآن الكريم يؤكد ان الاسلام الذى جاء على لسان محمد ﷺ يتفق فى أصوله وغاياته مع ما أوحى الله لأنبيائه الأقدمين.

قال تعالى: ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ** ﴾

[الشورى: ١٣]

ومعنى هذه الآية واضح، فان العقائد الأساسية فى كل الديانات التى بلغها هؤلاء المرسلون واحدة.

والديانات الباقية الآن، والتى يتبعها جمهور كثير من الناس هى اليهودية والمسيحية والاسلام.

واتباع هذه الأديان الثلاثة يحترمون أبا الأنبياء إبراهيم، ويعتبرونه جذر الشجرة التى تفرعت مع امتداد العصور، وأنبتت موسى وعيسى ومحمدا.

وكان ينبغى ان يتفق الكل على نشر التوحيد، وتعريف الأمم الجاهلة برب العالمين ولكنهم للأسف لم يتفقوا.

والقرآن الكريم فى الآية السابقة يوصي المسلمين بأن يتعاونوا مع غيرهم على نشر هداية السماء ﴿ **.. أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ..** ﴾.

والواقع أنه مما يزرى بالضمير الدينى أن تنشب العداوة بين المتدينين على اختلاف مللهم، وأن تتسع بينهم هوة الخلاف مع أنه جدير بهم أن يتعاملوا فيما بينهم بالود والعدل والرحمة.

والقرآن الكريم يذكر ان محمدا ﷺ جاء مؤكدا لما قبله لا ناقضا له، وليس هذا فى أصول الايمان وحدها، بل فى مكارم الأخلاق، وفروع العبادات التى لا ينضج التدين ويتم الكمال البشرى إلا بها.

خذ مثلا هذه المجموعة من التعاليم التى وصى الله بها بني إسرائيل على ألسنة أنبيائهم الكثيرين.. ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [البقرة: ٨٣].

إن هذه التعاليم كلها هى نفسها التى امر الاسلام بها.

فعبادة الله وحده، والاحسان الى الوالدين والأقارب، ورعاية الأيتام وإعانة المساكين، وإلانة القول لخلق الله كلهم. آداب لابد للمؤمن منها قال الله فى كتابه: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾
[النساء: ٣٦]

والصفح عن المسئ، ومقابلة الشر بالخير، والقبيح بالجميل وهى تعاليم أبرز ما تكون فى خطبة عيسى عليه السلام وهو يعظ أتباعه فى الموعظة النبيلة التى جاء فيها.. «ومن لطمك على خدك الأيمن فادر له الأيسر».

إن هذه الروح المتسامية فى سماحتها، المطهرة من دنس الحقد هى هى التى جعلت نبى الإسلام يقول: «أمرت أن أصل من قطعنى، وأن أعطى من حرمنى، وأن أعفو عمن ظلمنى».

والمفروض أن هذا اللون من السلوك العالى مقصود به تدريب الانسان على فعل الخير ونشدان الكمال المطلق إيثارا لما عند الله من مثوبة، وإحرازا لرضاه الأعلى دون نظر الى ما يستحقه المعتدى من قمع، أو ما تفرضه العدالة من قصاص.

لكن عندما يستشرى الشر وتضيع الحقوق وتترنح الأفراد والجماعات تحت وطأة الظلم فلابد من استعمال الشدة.

والمسيحية والاسلام فى ذلك سواء..

فعيسى صاحب الكلمات الرقيقة السابقة يقول: «ما جئت لأحمل سلاما بل سيفا».

والقرآن الكريم يقول: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ * وَجَزَاءُ

سَيِّئَةٌ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٣٩ - ٤١].

أى لا حرج على أى مؤمن أن يقاوم المعتدى ويكسر شوكته.

والأديان الثلاثة توصى بحفظ العرض، وضبط العلاقات الجنسية فى حدود الأسرة التى توثقت بكلمة الله.

والنهى عن الزنا أحد الوصايا العشر التى تواصى بها العهد القديم والجديد.

والواقع أن الاسلام فى سبيل صيانة الأعراض والدماء والأموال أحيا الأحكام السماوية التى تناستها الأمم السابقة، بل إنه لام اليهود لأنهم يريدون الخروج على تعاليم التوراة، وكان ينبغى أن ينفذوا حكم الله فى هدوء مهما كان هذا الحكم صارما.

قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ [المائدة: ٤٣].

والقصة وردت فى يهودى اعتدى على عرض امرأة، وكان لابد من رجمه حسب أحكام التوراة.. ولكن اليهود تجاهلوا حكم كتابهم فامر نبى الاسلام باحترامه[١].

وحديث القرآن الكريم عن التوراة والانجيل يستدعى النظر والتنويه، فهو يقول عن التوراة: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ...﴾ [المائدة: ٤٤].

ويقول عن الإنجيل: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ...﴾ [المائدة: ٤٦].

ثم يقول الله جل شانه عن القرآن الكريم ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ...﴾ [المائدة: ٤٨].

---

(١) أغلب ما يباعد بين المسلمين وأهل الكتاب الأولين أن هؤلاء لا يريدون تنفيذ ما جاء به موسى وعيسى على حين يتمسك المسلمون به.

ومعنى الهيمنة المذكورة أن القرآن نزل بعد التوراة بنحو ثلاثين قرنا، وهى فترة تطورت فيها البشرية تطورا يستدعى بعض التغيير فى الشرائع الفرعية التى تحكم العلاقات وتنظم الطوائف، وتسير سياسة الحكم والمال وفق قواعد لا تسمح بالفوضى والهوان والبأساء والضراء.

وذاك ما وسع الاسلام دائرة الكلام فيه، واتى فيه بجديد، لا يناقض أصول الديانات السابقة بل يصون هذه الأصول أو لا يخدشها.

وليس من أصالة الراى أن يطلب من الإسلام الجمود مع تطور الانسانية فان اللباس الذى يصلح لصبى صغير لا يصلح مطلقا لرجل كبير.

وعصرنا الحاضر يحتاج الى ان يسير حياته الاجتماعية:

أولا: على الايمان بالله وحده، وهو ما تواصت به جميع الرسالات السماوية قال تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ثانيا: على الاخلاص فى إقامة الصلاة وايتاء الزكاة، وهو ما شرعه الله لكل الأمم على اختلاف الأزمنة قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ** ﴾ [البينة: ٥].

ومما لا شك فيه أن الصلاة شعيرة مهمة لتصفية النفس الانسانية ووصلها بالسماء، وأن الزكاة فريضة لدعم التكافل الاجتماعى وإقرار الأخوة العامة بين البشر.

ثالثا: حراسة الفضيلة وإشاعتها، وكره الرذيلة ومحو جراثيهما وهذه هى حقيقة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر التى شاعت فى كل دين، وكلف بها جمهور المؤمنين.

وقد خاصم عيسى عليه السلام اليهود وندد بهم لانهم - كما عبر القرآن ﴿ **كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** ﴾ [المائدة: ٧٩].

رابعا: معاملة البشر كافة بضمير رحيم وخلق فاضل. وقد ندد القرآن الكريم بأن بعض المتدينين لا يبالى بإساءة من ليسوا على دينه. واستباحة حقهم فقال ﴿ **وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ**

يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ٧٥، ٧٦].

خامسا: إشاعة العدالة والرحمة والسلام فى الأرض، وهذه تعاليم شاعت فى الكتب السماوية كلها، وينبغى أن تنسق جهود المؤمنين لنشرها ودعمها قال تعالى مبينا السر فى بعثة محمد ﷺ: ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ٦٤] وقال: ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [فصلت: ٤٣]

ومن الحمق الزعم بأن الأديان نسخ متعددة من كتاب واحد، وأننا نبغى بهذا الاستعراض نفى ما بينها من فروق أو جمع أتباعها على وحدة فكرية ومذهبية مطلقة.

إن ذلك مستحيل بداهة، ولكننا ننشد إبراز العوامل المشتركة التى تقارب ولا تباعد، وترجح السلام على الخصام والألفة على الوحشة، وتفسح مجالا للتعاون على البر والتقوى.

إنه مع ضيق الخلق، وفساد الطوية وتفاهة التفكير - يمكن أن يتقاتل أبناء الدين الواحد، وتتشعب بهم عشرات السبل فلا يلتقون أبدا.

ومع سعة الخلق، وشرف النفس، وسلامة الرأى، يمكن أن يتعاون أشياع رسالات مختلفة، ويقدمون للانسانية خيرا كثيرا، مع بقاء كل طرف منهم مستمسكا بدينه حريصا على تعاليمه.

وأحب أن ألفت النظر الى نوع مـــذكــور من التــلاقى الواقع فى بعض المجتمعات!

هناك تلاق بين أناس ينتسبون بالاسم فقط إلى عقائدهم، فتراهم منحلين عن أديانهم موضوعا وإن انتموا إليها شكلا، وما جمعتهم إلا الشهوات والمآرب الدنيا.

هذا التجمع لا يدل على سماحة، ولا يصح الاستشهاد به على انتهاء التعصب الدينى!!

إنه شارة انحلال دينى عام، وليس شارة تعاون مشكور.

الذى أبغيه أن يوفى كل ذى دين بحقوق دينه، فلا ينسى ربه ولا لقاءه ولا الرحمة بعباده، وينظر الى مخالفيه نظرة لا حقد فيها ولا تبرم ولا حيف ولا جفاء!! بل نظرة تقوم على البر والعدالة والاحسان.

وعندى أنه مما يعين على ذلك فى الظروف العالمية القائمة أن يجتمع مؤتمر مسكونى مسيحى آخر، فيعطف على عرب فلسطين فى محنتهم، ويمحو أثر المؤتمر المسكونى السابق الذى أبدى عاطفة مستغربة نحو اليهود فى فترة يهجمون فيها على بلادنا ويزعمون أنهم أولى بها منا، ويريدون بناء وطن لهم على أنقاضنا.

إن ذلك – لو تم – سيكون بداية إغلاق الطريق أمام المادية الزاحفة على كل شئ، المستهينة بكل قيمة، المحتقرة لرسالات السماء على سواء.

أما إذا بقى الاستعمار يجرر وراءه أحقاد العصور الخالية، ويجرئ اليهود على احتلال أرضنا واغتصاب حقنا، فان النار التى أشعلها ستحرقه قبل غيره، وسيندم حين لا مكان لندم.

إنى باسم الاسلام أعرض سلاما شريفا فهل يقبل هذا العرض أم يرفض؟

وأعرف أننا فى فترة من تاريخنا لا نحسد عليها.

ولكننا بعون الله سوف نجتازها، وسوف نحاسب من اعان على قتلنا، ومن تركنا نحتفظ بحق الحياة.

إننا لا نطلب من مؤتمر مسكونى جديد أن يسدى إلينا يدا، بل أن يكف عنا الأذى، ويمنع عدوان أتباع حاقدين.

أما الإيعاز الى بعض الطوائف الجاحدة أن تعرقل الكفاح العربى وأن تضرب المكافحة الفلسطينية فتلك قبيحة ينمو مع الزمن عارها ولن تنسى لأصحابها.

فهل نجد سميعا لهذا النداء؟؟

* * *